اصبحوا فئة اجتماعية مالكة اكثر منهم خدماً للمعابد(٢٤). وقد اورد عبد الباسط عبد المعطي ارقاماً تفيد ان ممتلكات معابد طيبة ومسنف وهولوبوليس بلغت: ٢٨٢٢ كيلومتراً مربعاً من الأراضي الزراعية، ١٦٩ قرية، ٩٧,٣٦٤ من البشر، ٤٧٦,٩٦٣ رأساً من الماشية، ٨٨ سفينة، ٣٠٢ حديقة، و١٠٤ كيلو غرامات من الذهب. ولتكريس موقعهم كطرف في الارستوقراطية الحاكمة، ادخل الكهنة تعديلاً على النظرية الدينية «الرسمية» انتقلت بمقتضاه مقار الآلهة من الأرض الى السماء حتى يصبحوا هم ممثلو الآلهة على الأرض، ويصبح لهم بذلك حق مراقبة اعمال الملك، وتوجيه النصح او النقد له، والوقوف منه احياناً موقف الند.

وأدى سلوك الكهنة هذا إلى تعزيز المبرر لدى الفلاحين وعامة الشعب للاتجاه، أكثر فأكثر، للاستقلال عن المؤسسة الحاكمة، بما فيها المؤسسة الدينية الرسمية، في علاقتهم بالآلهة، وهذا ما عمق الشعور لدى الانسان المصري بان الدين مسألة تخصه هو، ويستطيع ان يغيره بعد ذلك وفقاً لمصالحه طالما أن المسألة لا تتعلق بعلاقته بالآلهة او بالإله، وانما بشكل ممارسة هذه العلاقة.

وكان توزع النفوذ، في الدولة الحديثة، بين الملك والأمراء والكهنة، وانهماك كل طرف، وبخاصة الكهنة، في تجميع الثروة على حساب الفلاحين وعامة الشعب، سبباً في تعميق الشعور بالمظالم، ومن ثم الشعور بالغربة لدى الفلاحين وعامة الشعب عن اطراف المؤسسة الحاكمة، سواء الملك او الامراء او الكهنة، وكانت ثورة اخناتون التوحيدية محاولة للقضاء على هذا التحلل، وعلى نفوذ الكهنة حتى يستطيع ان يستعيد للدولة المركزية قوتها، واردف اخناتون هذه الثورة الدينية ــ السياسية بتوجه نحو بعض الاصلاحات الاجتماعية، ولكن سرعان ما تآمر عليه الكهنة فاغتالوه، وقضوا على ديانته، وبالتالي على كل آثار ثورته السياسية والادارية والاجتماعية، وتزايد نفوذهم بدرجة كبيرة في عهد الرّعامسة الأواخر، من رمسيس الرابع الى الثاني عشر، وتولى احدهم منصباً شبيهاً بمنصب وزير الداخلية، وهكذا تحولت الكهانة الى اداة قمع للشعب. ويغتصب الكاهن هريهور، كاهن طيبة الأكبر، الملك (١٠٩٠ ق.م.) ويقاومه الامراء ويسقطوه، ليعود كاهن آخر فيتزوج من احدى اميرات الاسرة الواحدة والعشرين (١٠٩٠ ــ ٩٤٥ ق.م.) ويسيطر بذلك على السلطة السياسية، ثم يسود الاضطراب والتحلل، ويستولي المرتزقة الليبيون على الحكم، ويقود الامراء ثورة ضدهم، ويغزو الاثيوبيون مصر، ومن بعدهم الاشوريون، ويتوحد الامراء خلف بساماتيك لتحرير مصر، ولكن ايضاً بالاستعانة بالمرتزقة الأجانب، الذين يعاودون الدخول طرفاً في الصراع المحلي من اجل السلطة، مما يسهل على الفرس غزو مصر (٥٢٥ ــ ٣٣٨ ق.م.)، ويقود الامراء ثورة ضد الفرس ويطردونهم، ولكن الفرس يعاودون غزو مصر مرة أخرى، وتنشب ثورة جديدة لطردهم، ولكن الفرس يسحقونها ويصلبون زعيمها «اناروس». ويثور المصريون، للمرة الثالثة، وينجحون في طرد الفرس واقامة دولتهم المركزية القومية من جديد (٤٠٤ ــ ٣٤١ ق.م.). ولكن الفرس يعودون، مرة اخرى، (٣٤١ ق.م.) وتسقط الدولة المركزية في ايديهم بعد ان يهرب آخر الفراعنة نكتانيبوس الثامن، ويعمل الفرس في مصر تدميراً وتخريباً ونهباً.